هل الحضارة الغربية حضارة مادية ؟

روحانية الحضارة الغربية في صناعتها وعلمها

من جوامع الكلم التي تنسب الى كنفوشيوس حكيم الصين ان كل ادوات الحضارة لها اصل روحي لان الفكر مصدرها كلها . فهو يقول : « متى تصوّرت هذه الادوات كان تصوّرها في عقلك « افكاراً » . ومتى جسمتها في شكل من اشكال المادة دعوتها «ادوات » ومتى نشرتها بين جمهور الناس لاستعمالها لبست شكلاً من اشكال الحياة ونسبوها الى الآلهة . ومثل كنفوشيوس على قوله بامثلة كثيرة فقال ان الانسان رأى الخشب طافياً على وجه الماء قبلما صنع المراكب والسفن . ورآه كذلك مغموراً بالماء فصنع التوابيت لحفظ اجسام آبائه واجداده . ورأى المطر هاطلاً من السماء فخاف أن يمحو كلّ آثار الانسان فاستنبط الكتابة

ومن العبث التدليل على ان رأي كنفوشيوس هذا قد أخذ به ارسطوطاليس وافلاطون . فكل ادوات العمران ومنشآته اصلها « افكار » او « صور فكرية » في عقول مبدعيها . وقد كانت العصور التي عاش فيها كنفوشيوس وافلاطون وارسطوطاليس سابقة للعصور التي اضطرب العقل البشري فيها بمسألة الجسد والروح واتصال احدهما عن الآخر فاعترفوا جميعهم بان اساس العمران المادي والمستنبطات المادية اساس روحي

روحانية الصناعة

والحق يقال انهُ لا يوجد في التاريخ ما يسمونهُ «حضارة مادية» مجردة . فكل اداة من ادوات الحضارة يبدعها الذكاء البشري متصرفاً بالمادة والقوة لتحقيق حاجة من حاجات المعاش او تلبية لدافع يدفعهُ الى تمثيل الجمال الاسمى او لاكفاء ميلهِ الى البحث والتنقيب وحب الاستطلاع . وانا لا أرى ان قطعة من الخزف فيها من المادية اكثر مما نجدهُ في قصيدة بليغة من قصائد الحب . كما اني لا ارى ان كاتدرائية القديس بولس اقل مادية من بناية ولورث ناطحة السحاب . واذا رجعنا الى التاريخ وجدنا ان الانسان الاول لما فاز بابداع النار من حك الخشب حُسب ابداعهُ هذا عملاً روحيًّا ساميًا يجب ان ينسب الى اعظم الآلهة . وفي الصين ترى ان كل ملوك الخرافات فيها لم يكونوا

كهنة ولا فلاسفة بل كانوا مستنبطين مثل سوي جن مكتشف النار وبيوتساو أول بان للبيوت وشن نونغ اول معلم للزراعة والطب. واجدادنا احسنوا فعلا بتأليه المستنبط لان الانسان مهما وصف لا يخرج عن انهُ حيوان يحسن صنع الآلات ، وصنع الآلات هذا هو اساس العمران. فالكشف عن النار كان فاتحة عصر جديد في تاريخ البشر . كذلك كان الكشف عن مبادىء الزراعة الاولى ، واستنباط الكتابة ، واستنباط الطباعة . أوَ ليس استنباط التلسكوب والآلة البخارية واكتشاف الكهربائية وتطبيقها اساس العمران الحاضر ؟ واذا حق للعصور الوسطى ان تجعل كهنتها في مرتبة القديسين وجب ان نؤله غليليو ووط وستيفنسن وموري وبل واديسن وماركوني وفورد ؟ ألّه الاقدمون بروميثوس مكتشف النار وقدموس مستنبط الكتابة . ان كلّ هؤلاء يمثلون تلك الشعلة الالهية في الانسان ـ العقل المبدع الذي يستنبط الآلات ويبني بها العمران

وحضارة كل امة هو ما تعمله لتكيف وفق مقتضيات بيئتها والنجاح في هذا التكيف او الفشل فيه يتوقفان على مقدرة ابناء هذه الامة في استخدام ذكائهم لاستنباط الآلات اللازمة الفعالة . والتقدم في العمران متوقف اولاً وآخراً على البراعة في ابداع الآلات واتقانها . ان اسماء العصور المتغلغة في التاريخ تدلك دلالة واضحة على ما تقدم. لماذا نقول العصر الحجري والعصر البرونزي وعصر الحديد وعصر البخار وعصر الكهربائية ؟ ذلك لان كل مادة او

نشرنا في مقتطف يناير الماضي مقالة موضوعها « هل الحضارة الغربية على جرف هار » اثبت فيها كاتبها ان الحضارة الغربية تقوم على العلم والصناعة وانه لا خوف عليها من الانحلال والاندثار لان العلم يتقدم تقدماً حثيثاً وارتباط الصناعة بالعلم يزداد كل سنة احكاماً . وانه اذا ثارت حرب طاحنة بين الامم التي بلغت فيها الحضارة الغربية ارقى مراتبها وقضت على كل مآثر العمران امكن تجديدها في اميركا واليابان . وفي مكان آخر من هذا الجزء يرى القارىء مقالا موجزاً لمس فيه الكاتب رأي الفيلسوف الالماني سبنغلر الذي يذهب الى ان ظل العمران الغربي آخذ في التقلص . ومن اقوى الادلة التي يسوقها لتأييد رأيه ان الحضارة الغربية مادية تفسد الاخلاق وتغري بالتزاحم والتناحر . فهل الحضارة الغربية حضارة مادية فعلا ؟ هذا هو السؤال الذي نريد ان نجيب عنه في ما يلي بتلخيص مقال مسهب للحكيم الصيني الدكتور هو شه

قوة من المواد او القوى المذكورة كان الصبغة الغالبة التي اصطبغت بها ادوات ذلك العصر وكانت مرقاة لابنائه الى ذرى العمران

***

وما يصح على تقدم الحضارة التاريخي يصح كذلك على وجوه الاختلاف بين حضارات الشرق وحضارات الغرب . فالفرق بين حضارة الشرق وحضارة الغرب انما هو في الدرجة الاولى فرق بين ادوات العمران المستعملة في كليهما . فامم الغرب تقدمت امم الشرق في القرنين الاخيرين في ميدان الحضارة لان ابناء الامم الغربية تمكنوا من استنباط ادوات جديدة واستعمالها فمكنتهم من فهم اسرار الطبيعة والسيطرة على قواها وزيادة مقدرتهم على العمل والانتاج. اما الامم الشرقية ،التي كانت بدائتها مهداً لاقدم ادوات العمران واشهرها، فتأخرت عن مجاراة الغرب في هذا الميدان والسير على نهج أبنائها الأول، فظلت تعمل باليد ما سخّر لهُ ابناء الغرب البخارَ والكهرباء

هنا اذاً نرى الفرق الاساسي بين حضارة الشرق وحضارة الغرب. ان الحضارة الشرقية قائمة اصلاً على عمل اليد ، وهو مصدر كل القوة التي تستعملها في انتاج ما يلزم لها من مقومات العمران . اما حضارة الغرب فقائمة على قوة الآلات . وقد قال لي احد اصدقائي الاميركيين « كل رجل وامرأة وولد في اميركا يملك من ٢٥ الى ثلاثين عبداً ميكانيكياً مع ان كلَّ رجل وامرأة وطفل في الصين لا يملك سوى جزء من اربعين جزءاً من ذلك». وقد وضح احد المهندسين الاميركيين ذلك بصورة ابلغ اذ قال :« لكل انسان في الولايات المتحدة الاميركية ٣٥ عبداً فنياً يقومون باعماله. والعامل الاميركي ليس مستبداً بل رئيساً لهذه العمال الميكانيكية سواء عرف ذلك ام لم يعرفهُ » . هذا هو الفرق بين الحضارتين . هو فرق في الدرجة ولكنهُ بلغ مبلغاً عظيماً حتى كاد يصير فرقاً في النوع

***

في يوليو سنة ١٩٢٦ وصلت الى مدينة هاربن بشمال منشوريا في طريقي الى اوربا . وهي مركز تجاري يدعى الآن «شنغاي الصين الشمالية» وقد كانت قبلاً دائرة نفوذ للروس فنشأ على بعد بضعة اميال منها بلدة صغيرة كانت قبل ذلك قرية حقيرة . جلت في شوارع المدينة ثم انتقلت الى البلدة الصغيرة فلاحظت امراً ادهشني وحملني على التأمل لانهُ كان ابلغ مثل يبين الفرق بين روحانية الحضارة الغربية وروحانية الحضارة الشرقية . ذلك ان كل وسائل الانتقال في مدينة هاربن كانت عربات يجرّها الناس فكأنهم حلّوا فيها محلَّ

الحيوانات . ولما انتقلت الى بلدة « هارن » لم ار شيئاً من هذا . لان الروس كانوا قد منعوا ذلك في ايام سيطرتهم فاحتفظ السكان بهذه العادة حتى بعد خروج الروس منها والانتقال الى سيطرة الصينيين

هنا وقفت على الحد الفاصل بين حضارة الجركس وحضارة السيارة . حضارة الانسان المستعبَد كالحيوان وحضارة الانسان السيد

دع الفلاسفة الذين يقولون بروحانية الحضارة الشرقية يتأملوا هذا . اية روحانية تجدها في هذه العبودية الفظيعة وامثالها ؟ اتعتقد حقاً ان في هؤلاء العبيد المستعبدين كالحيوان حياة روحية سامية ، مع انهم يشقون في قيود العبودية الحرساء . اتعتقد حقاً ان حياة هذا المستعبد الروحية اسمى من حياة عامل اميركي يملك سيارة فيستغلها مع افراد اسرته بعد انقضاء ساعات العمل فيطوف بها الارجاء الفسيحة والحدائق الناء او يذهب الى دور الصور المتحركة يتلقى على شاشتها ما يزيد حياتهُ الفكرية والروحية سعة وعمقاً او يجلس في داره يصغي لاسكيتا اكابار الكتاب والخطباء والوعاظ والموسيقيين ويستطيع ان يعلم اولاده في مدارس عامة مجهزة باحدث ادوات العلم ومجموعة صالحة من كتب المتقدمين والمتأخرين

لن يستطيع القارئ ان يدرك الفرق الذي احاول ان اصوّره الا اذا رأى ما يكابده هؤلاء المساكين من التعب والشقاء واثر ذلك في صحتهم وعمرهم . حينئذٍ يبارك هارغريف وكارتريت وفلتن ووط وستيفنسن وفورد الذين ابدعوا الآلات المختلفة لتنفي من عمل الانسان ذلك الذي يساويه بالحيوانات والذي لا يزال ابن الحضارة الشرقية القديمة مستعبَداً به

هنا روحانية التقدم المادي والميكانيكي في الحضارة الغربية . فالتقدم الميكانيكي يعني استعمال العقل البشري لابتداع الادوات والآلات حتى يضاعف بها قوة الانسان على العمل والانتاج فيتمكن من التخلي عن استعمال يديه ورجليه وظهره في عمل لا جدوى منهُ ، حتى يستعمل ما يتسع امامهُ من ساعات الفراغ للتمتع بكل اسباب الحضارة والتثقيف واللذة العقلية والروحية . لانهُ اذا قضى على الانسان ان يقضي كل نهاره وجانباً من ليله يقطّر دمهُ في عمله الشاق لم يبق لديه نشاط للاقبال على تلك الامور الروحية والعقلية التي يتمتع بها ابن الشرق

فعندي ان كل حضارة تستحق ان تدعى كذلك يجب ان تبنى على اساس الرقي المادي وقد قال في ذلك احد ساسة الصين منذ ستة وعشرين قرناً : متى كثر الطعام واللباس امكن التفريق بين الشرف والخسة . ومتى امتلأت المخازن تعلم الناس الآداب السامية

روحانية العلم

مما يختلف المفكرون في تحديد المقصود من « حياة الروح » او « الحياة الروحية » لا يختلف اثنان في ان حب المعرفة واستطلاع المجهول من المطالب الروحية العليا التي تدفع الانسان الى البحث والاستقصاء . ومع ذلك نرى ان اكثر الحضارات القديمة حاولت ان تطمس في الانسان هذه النزعة الروحية النبيلة . ففي سفر التكوين يعلل سقوط الانسان بطلب المعرفة . واكثر الديانات الشرقية علمتنا: « لا علم لا شهوة » و « اجهل كل شيء واتبع نظام الرب » و « اجتنب الحكمة » . وقد قال احد حكماء الشرق العظام « الحياة محدودة والمعرفة غير محدودة . فما اصعب السعي للحصول على غير المحدود بشيء محدود » لذلك أعرض هؤلاء الحكماء عن الطريق العلمي طريق البحث عن الحقيقة بالاستقصاء والاستقراء والبحث والتنقيب وانصرفوا الى التأمل والبحث في النفس سعياً وراء ما سموه الحكمة العميقة . ودعى بعضهم الى الاتصال بالله عزّ وجلّ حتى من غير تأمل في اعماق النفس . وغيرهم عيّن المراتب التي يجب ان تمرّ النفس فيها قبل الحصول على قوى الاله الست

في يناير سنة ١٩٢٧ كنت في بلدة بفيوجرزي باميركا فشاهدت فقيراً شرقيًّا يحاول ان يقنع الجمهور الاميركي انهُ يستطيع ان يثبت تفوق الحضارة الروحية الشرقية بدفن نفسه ساعتين و٥٢ دقيقة خمس اقدام تحت الارض يعود من بعدها فينتفض حيًّا . وهو عمل سبقهُ اليه هوديني المشعوذ المشهور الذي لا يدعي قوة خارقة ، تبقى مطموراً كذلك نحو ساعة ونصف ساعة

وعندي انهُ من الجهل القول بان روحانية الحضارة قائمة على هذه الاخاديع . أوَ لا تستطيع طائفة كبيرة من الحيوانات الدنيا والعليا ان تتكمش وتقضي فصل الشتاء ساكنة كأنها ميتة فتنقطع عن الحركة والاكل ثم تعود الى الحركة والحياة حين تصلح بيئتها لذلك

ولكن ألست تجد روحانية حيّة في اكباب العلماء على استقصاء المجهول من اسرار الطبيعة والحياة بطريقتهم العلمية الدقيقة الخاضعة للامتحان

الحق خفيٌّ لا يكشف القناع عن وجهه للخادعين من امثال الفقير الشرقي المذكور او زملائه من الوسطاء الغربيين ، الذين يقتربون من قدسه بايدٍ غير مشرفة على البحث وعقولٍ غير مثقفة باساليبه ونفوس لا ترى الحقّ فوق كل حطام من حطام الدنيا

العلم يثقف العقول فيدنيها من القدس الاعلى لانهُ يجهزها بطرق واساليب وادوات للبحث عن الحق الخفيّ . وهو كذلك يعلمنا ان لا نقنط حين تكتنفنا المصاعب والعقبات في

سعيا للكشف عن الحقيقة لان العلم لا يتقدم الاّ بالبحث الدقيق والتغلب على المصاعب التي تحول بين الباحثين وغاياتهم المنشودة . وكل حقيقة جديدة يثبتها العلماء هي فتح جديد للعلم مهما تكن تافهة في ظاهرها وعدم علاقتها بغيرها من الحقائق . لان جسم العلم الحيّ النامي انما هو مجموعة من هذه الحقائق ، وكل خطوة يخطوها الباحث الى الامام توقظ في نفسه ذلك الحبور الروحي الذي كان ينسب الى الحكماء الاقدمين حين تجلّى الالهة لهم . كذلك شعر ارخيدس حين كان في حمامه وعقله غارق في بحث مسألة علمية عويصة . فانهُ حين اهتدى الى حلها قفز من حمامه وخرج عارياً في الشوارع ينادي « وجدتها وجدتها » لان جذلاً روحيًّا علكهُ وسدَّ عليه منافذ العقل الخاضع للتقاليد الاجتماعية . وهذا هو الحبور الذي كان يشعر به كلٌّ من المكتشفين العظام مثل غليليو ونيوتن وباستور واديسن ومن هم على شاكلتهم — فرح روحي لم يشعر بمثله الصاف الانبياء من ابناء الحضارات القديمة الذين كانوا يبحثون عن الحقيقة الكلية بالتأمل والاستهواء

واكثر عناصر العلم الحديث روحانية هو هذه الريبة في كل شيء قبل تصديقه ، هذه الشجاعة الادبية على الشك في كل امر لم تقم على تأييده الادلة الوافية . وهذا الموقف ازاء الحقيقة ليس موقفاً سلبيًّا كما يدعي كثيرون بل هو موقف يؤدي بالباحثين الذين يقفونهُ الى الابداع والبناء . لان الشك هو الطريق الى الاقناع او كما قيل الشك اول مراتب اليقين . وغايتهُ انما هي التغلب على الشكوك والريب باقامة المستند على دُعُم راسخة . فان العلماء الذين يقفون هذا الموقف لم يكتفوا بمحاربة المعتقدات القديمة بآلة « الشك » الهدامة بل كان موقفهم باعثاً على كشف كثير من المكتشفات العظيمة ما كانت تكتشف لولا تشددهم في اقامة الدليل . هو هذا الروح ، روح « الشك المبدع » الذي كان العنصر الاساسي في سبر رجالهم في مقدمة المحسنين الى الانسانية امثال دارون وهكسلي وباستور وكوخ

وماذا نقول بنظرة الاعجاب والاجلال التي تبعثها في النفس المباحث العلمية الجديدة حين تكشف لنا عن عظمة الكون وبناء المادة واسرار الخلق والتكوين والوراثة والنشوء وما اليها ؟

ومغزى هذا الحديث جليٌّ لذي عينين . بدأ الانسان حياتهُ على سطح الكرة كحيوان صانع للادوات وبنى حضارتهُ باستنباط ادوات جديدة قرناً بعد قرن مكنتهُ من السيطرة على قوى الطبيعة التي تحيط به . وهبطت هذه الحضارة الى دركها الاسفل حين سمّ الانسان هذا العراك مع القوى الطبيعية فاخلد الى التأمل في حياة الروح . ولكن العلم الحديث وما بني عليه من اساليب الصناعة اعاد للانسان ثقتهُ بنفسه ومقدرته فابدع حضارة الغرب